والتقليب مصدر قلب الدال على شدة قلب الشيء عن حاله الأصلية . والقلب يكون بمعنى جعل المقابل للنظر من الشيء غير مقابل كقوله تعالى (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها) وقولهم : قلب ظهر المجن وقريب منه قوله (قد نرى تقلب وجهك في السماء) ؛ ويكون بمعنى تغيير حالة الشيء إلى ضدها لأنه يشبه قلب ذات الشيء .

والكاف في قوله (كما لم يؤمنوا به) الظاهر أنها للتشبيه في محل حال من ضمير (لا يؤمنون) و (ما) مصدرية . والمعنى : لا يؤمنون مثل انتفاء إيمانهم أول مرة . والضمير المجرور بالباء عائد إلى القرآن لأنه معلوم من السياق كما في قوله (وكذب به قومك) أي أن المكابرة سجيتهم فكما لم يؤمنوا في الماضي بآية القرآن وفيه أعظم دليل على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام لا يؤمنون في المستقبل بآية أخرى إذا جاءتهم . وعلى هذا الوجه يكون قوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) معترضا بالعطف بين الحال وصاحبها . ويجوز أن يجعل التشبيه للتقليب فيكون حالا من الضمير في (نقلب) أي نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن فطرة الأفئدة والأبصار كما قلبناها فلم يؤمنوا به أول مرة إذ جمحوا عن الإيمان أول ما دعاهم الرسول عليه الصلاة والسلام ويصير هذا التشبيه في قوة البيان للتقليب المجعول حالا من انتفاء إيمانهم بأن سبب صدورهم عن الإيمان لا يزال قائما لأن ا حرمهم إصلاح قلوبهم .

وجوز بعض المفسرين أن تكون الكاف للتعليل على القول بأنه من معانيها وخرج عليه قوله تعالى (واذكروه كما هداكم) . فالمعنى : نقلب أفئدتهم لأنهم عصوا وكابروا فلم يؤمنوا بالقرآن أول ما تحداهم فنجعل أفئدتهم وأبصارهم مستمرة الانقلاب عن شأن العقول والأبصار فهو جزاء لهم على عدم الاهتمام بالنظر في أمر ا تعالى وبعثة رسوله واستخفافهم بالمبادرة إلى التكذيب قبل التأمل الصادق .

وتقديم الأفئدة على الأبصار لأن الأفئدة بمعنى العقول وهي محل الدواعي والصوارف فإذا لاح للقلب بارق الاستدلال وجه الحواس إلى الأشياء وتأمل منها . والظاهر أن وجه الجمع بين الأفئده والأبصار وعدم الاستغناء بالأفئدة عن الأبصار لأن الأفئدة تختص بإدراك الآيات العقلية المحضة مثل آية الأمية وآية الإعجاز . ولما لم تكفهم الآيات العقلية ولم ينتفعوا بأفئدتهم لأنها مقلبة عن الفطرة وسألوا آيات مرئية مبصرة كأن يرقى في السماء وينزل عليهم كتابا في قرطاس وأخبر ا رسوله صلى ا عليه وسلم والمسلمين بأنهم لو جاءتهم آية مبصرة لما آمنوا لأن أبصارهم مقلبة أيضا مثل تقليب عقولهم .

وذكر (أول) مع أنه مضاف إلى (مرة) إضافة الصفة إلى الموصوف لأن أصل (أول) اسم

تفضيل . واسم التفضيل إذا أضيف إلى النكرة تعين فيه الإفراد والتذكير كما تقول : خديجة أول النساء إيمانا ولا تقول أولى النساء .

والمراد بالمرة مرة من مرتي مجيء الآيات فالمرة الأولى هي مجيء القرآن والمرة الثانية هي مجيء الآية المقترحة وهي مرة مفروضة .

(ونذرهم) عطف على (نقلب) . فحقق أن معنى (نقلب أفئدتهم) نتركها على انقلابها الذي خلقت عليه فكانت مملوءة طغيانا ومكابرة للحق وكانت تصرف أبصارهم عن النظر والاستدلال ولذلك أضاف الطغيان إلى ضميرهم للدلالة على تأصله فيهم ونشأتهم عليه وأنهم حرموا لين الأفئدة الذي تنشأ عنه الخشية والذكرى .

والطغيان والعمه تقدما عند قوله تعالى (ويمدهم في طغيانهم يعمهون) في سورة البقرة .

والظرفية من قوله (في طغيانهم) مجازية للدلالة على إحاطة الطغيان بهم أي بقلوبهم .

وجملة (ونذرهم) معطوفة على (نقلب) . وجملة (يعمهون) حال من الضمير المنصوب في قوله (ونذرهم) . وفيه تنبيه على أن العمه ناشئ عن الطغيان .

(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء ا ولكن أكثرهم يجهلون [111])